طرائف من العصر المملوكي :

من وحي حمـــاة

للأستاذ محمود رزق سليم

لا أدرى لماذا يهزنى شوق إلى حماة ، ويهفو قلبي إليها كلما ذكرت ، ويردد لسانى اسمها فى كثير من التقدير ، وأقف عند ترديده وقفة التأمل المستاهم ، مستعرضاً على ذاكرتى لمحات من لمحات تاريخها الفياض ، فتشرق منه فى سماء الذهن ومضات من أمجادها الماضية ، يستشعر منها القلب ضروباً من الجلال والقدسية ، ويتجدد بها للنفس ألوان من الدهش والإعجاب ، بهذه المدينة الشامية المصرية المجيدة الساحرة .

حرت حقاً فى تعليل هذا الشعور الذى ينتابنى كلما ذكرت حماة ، ولم تربطنى بها وشيجة ولا وليجة ، ولم تصل حبالى بحبالها ليال ولا أيام ، ولا اكتحلت العين بمرآها ولو مرة واحدة ، ولم يجش فى النفس أمل بلقياها والنعيم عهداً بالمقام فيها .

قلت للنفس : لعل هذا الشعور أثر من تلك الآثار التى أفدتها من مصاحبة تقى الدين بن حجة الحموى ، وليد هذه المدينة ، وأحد أدبائها النجباء ، فلقد صاحبته فى بعض مؤلفاته ، ودراسة آرائه وأفكاره ، وقرأت فى إمعان كثيراً من فصوله ، ووعيت فى إعجاب عديداً من مذاهبه . وكان رفيقاً فى صحبته ، حبيباً فى حديثه . حتى كان فى مقدمه الأسباب التى حببت إلى دراسة عصره ، ومهدت لى السبيل إليها ، وأنارت لى الطريق لبلوغ مأربى منها .

ولقد راعنى منه فيما راع ، ولوعه بمدينته تلك ، ولوعا تردد صداه فى كثير من منشئاته ، ولوعا لم يزايل قلبه ولم يفارق فؤاده فى يوم من الأيام ، على الرغم من انتزاحه عنها واغترابه منها زمناً طويلا . وتلك لعمرى مكرمة منها ومحمدة له ، جديرتان بأن تشعرا القلب بالجلال والإعجاب كلما ذكرت حماة .

لقد ولد ابن حجة عام ٧٦٧ ﻫ بحماة ، ثم شب وتعاطى الأدب . وطفق ينشىء وينظم ما شاء له الفن والهوى . وطوف فى بعض الآفاق ، حتى اتصل حبل وده وخدمته بسلطان مصر الملك المؤيد شيخ ، حينما كان أميراً فى بلاد الشام . فلما تم له أمر السلطنة فى مصر عام ٨١٥ ﻫ جمع من حوله حاشية من أهل وده ، ممن دانوا له بالولاء فى عهد إمارته ، وألقى إليهم بمقاليد الأمور . وكان من بينهم ابن حجة الحموى ، فاتخذه كاتباً من كتاب إنشائه . والكاتب المنشىء حينذاك ، كان فى الديوان كما يكون الوزير للسلطان .

عاش ابن حجة حينئذ فى مصر زمناً . فلم يلهه النعيم بها عن حماة . ولم تسله حاليات أيامه عندها ليالى لهوه ومدارج صباه فطفق يبعث إليها تحية اللهفان ، بين الآن والآن . ويحن إليها حنين النيب إلى العطن ، والهديل إلى السكن .

ويبدو أنه انتزح عنها فى أول أمره انتزاح المضطر الذى دعته الأحداث إلى الاغتراب . فظل حب حماة يساوره أنى سار ، فلا يفتأ يتغنى بمحاسنها ، ويتشوق إلى مغانيها ، ويتغزل فى مفاتنها ويحن إلى مجانيها .

كتب — وهو بالقاهرة عام ٨٠٢ ﻫ — إلى صديقه ابن البارزى بحماة ، قصيدة تفيض بالشكاية والأنين ، والشوق والحنين . استغرق ذكر حماة وأهلها أكثر أبياتها . وفى صدرها يقول مخاطباً ريح الصبا الذى يمر بها .

يا طيب الأخبار يا ريح الصبا ... يا من إليه كل صب قد صبا
يا صادق الأنفاس يا أهل الذكا ... يا طاهر الأذيال كم لك من نبا
يا من نراه عبارة عن حاجر ... يا روح نجد مرحباً بك مرحبا
يا نسمة الخير الذى من طيبه ... تنتشق الأخبار عن تلك الربا
بالله إن رنحت ذيلك بالحمى ... ووردت شمباً من دموعى معشبا
وهززت فيه كل عود أراكة ... أضحى بهاتيك الثغور مطيباً
ولثمت من ثغر الأقاحى مبسما ... أبدى بدر الطل ثغراً أشنبا
ودخلت كل خباء زهر قد غدا ... بدموع أجفان الغمام مطنباً
وطرقت حى العامرية ظامئاً ... فنعمت فى الوادى برباً زينبا
وحملت من نشر الخزامى نفحة ... مشمولة بالطيب من ذاك الخبا
عج بالعذيب فإن محجر عينه ... أضحى لما حلته مترقبا
واسحب عبير المسك منه فإنه ... لشوارد الغزلان أضحى مشربا
وإذا تنسمت الشذى وتعطرت ... منك الذيول وطبت ياريح الصبا

عرج على وادى حماة بسحرة ... متيمما منـــه صعيداً طيباً
واحمل لنا فى طى بردك نشره ... فبغير ذاك الطيب لن نتطيبا
واسرع إلى وداو فى مصر به ... قلبــاً على نار البعاد مقلباً
لله ذاك السفح والوادى الذى ... مازال روض الأنس فيه مخصباً
أنا بمصر نسـبة لـكن أرى ... وادى حمـاة واطنه لى أنسبا
أرض رضعت بها ندى شبيبتى ... ومزجت لذاتى بكاسات الصبا
يا ساكنى مغنى حماة وحقـكم ... من بعدكم ما ذقت عيشاً طيباً

على هذا الضرب من الغزل الواله والشوق الباكى ، يتابع ابن حجة أبياته تلك ، وله أبيات أخرى كثيرة على غرارها .

ويبدو أن حماة كانت قمينة بهوى حبيبها وغرام محبيها . فهى — فضلا عن أنها محل ميلاده ومجتمع أوطار فؤاده — قد شهد لها التاريخ بعراقة فى المجد وأصالة فى السؤدد وبسطت لها الأيام من البلهنية بساطاً ، ونشرت لهـا من النعيم بندا . إذ كانت عاصمة إمارة صغيرة ، اعتلى عرشها أمراء من الأيوبيين ، منذ عهد صلاح الدين الأيوبى ، وهم الملك المظفر تقى الدين عمر ، ثم سلالته من بعده . وتحولت فى العصر المملوكى إلى نيابة من نيابات المملكة المصرية ، توالى على إمارتها أمراء من قبل سلطان مصر ، فكان منهم أبو الفداء اسماعيل المعروف بالملك المؤيد ، وهو من سلالة المظفر . أنابه الناصر بن قلاوون سلطان مصر ، عنـه فى حكم حمـاة ، وكرمه بأن خلع عليه ألقاب الملك ، دون سائر نواب السلطنة .

وتقع هذه المدينة فى شمال سوريا ، بين حمص والمعرة . ويجرى فى وسطها نهر العاصى . وكان بها كثير من النواعير ، تستنبط بها المياه من الآبار . وكثير من الطواحين المائية ، وكانت تجملها البساتين المتعددة . ونبت من ناشئتها عديد من الأدباء والفضلاء . وفى العصر الحديث تطامن بنيانها وتناقص عمرانها .

أما فى عصر ملكها المؤيد أبى الفداء اسماعيل ، فقد كانت مدينة زاهرة ، وعاصمة ناضرة . تضرب من حولها الوديان وتمتد القيعان ، وتكتنف الغابات حيث يتخذ الوحش له مراحاً ، والطير الجارح مسرحاً . ويحلو فى جنباتها الصيد والقنص ، ويصفو بين دوحاتها اللهو والسمر . وقد استطاع المؤيد أن يجعل منها جنة نعيم ، ومنتدى علم ، ومجتنى أدب . فقد كان عالماً وأديباً وجواداً سخياً . ولهـذا طاف به العلماء والأدباء يطرقون بابه ويرجون جنابه ويستمطرون سحابه . فأعاد ببذله وفضله عهد الامتياح والسماح ، وزمن الاجتداء والعطاء ، وأجرى فى أعواد الشعراء ، ذوباً من البشر والرجاء ، وصوباً من الينع والنماء .

وممن هوى إليه فى حماة ، شاعر مصر الكبير جمال الدين بن نباتة ، بعـد أن نبا به المقام فى مصر ، ولم يجد بها إلا عيشاً يابسـاً ، ويوماً عابساً . فرحب به المؤيد ، وأوسع له فى بطانته مكاناً ، ومن عطفه بستاناً ، ومن صحبته إحساناً . فعاش فى كنفه مكرماً أثيراً . يروح ويغدو فى حماة ، بين سفوحها ورباها ، وينعم بطيب رياها . ويصحب المؤيد أحياناً فى رحلاته بين الغابات والوديان ، والأدواح والقيعان . وعاش ابن نباتة حتى شهد موت المؤيد ، فصحب ابنه الأفضل وأخلص له الود ووفى بالعهد .

وإذا تصفحت ديوان ابن نباتة ، بدا لك أثر حماة فى شعره واضحاً . فإقامته بها وطوافه برحابها ، واتصاله بملوكها ، كانت موحيات إليه ، وملهمات فى كثير من قصائده . فله نحو عشرين قصيدة فى مدح المؤيد ، ومثلها فى مدح الأفضل . وهى قصائد مشرقة حية ، جمع فيها من أفانين الشعر أعاجيب . فمن غرر المديح إلى الغزل المليح ومن الوصف الدقيق إلى الخيال الرقيق ، ومن الشوقيات الذاكرة إلى الخمريات السـاكرة .

وترى فى حمويات ابن نباتة هـذه ، بشاشة سافرة ، ورواء ضاحكا مستبشراً . تضحت عليها طبيعة حمـاة ، فبدت حسناء الشعر مرآتها ، وغيداء وأبياته أبياتها . لا أقول إنهـا علمت بن نباتة الوصف فقد كان وصافاً . ولا دعته إلى العطف فقد كان عطافاً . وإنما فوه بجمالها وصفه ، وزاد بين يديها عطفه.

فمن غزله فى صدر قصيدة مدح بها الأفضل قوله :

صدودك يا لمياء عنى ولا البعد ... إذا لم يكن من واحد منهما بد
بروحى من لمياء عطف إذا زها ... على الغصن قال الغصن ما أنا والقد
وعنق قد استحسنت دمى لأجلها ... وفى العنق الحسناء يستحسن العقد
من العرب إلا أن بين جفونها ... أحد شبا مما تجرده الهند
على مثلها يعصى العذول وإنما ... يطاع على أمثالها الشوق والوجد
عزيز على العذال عنى صرفها ... وللقلب فى دينار وجنتها رقد

أعاذلنا مهلا فقد بان حتفكم وقد زاد حتى ما لحقكمو حد
وقلتم قبيح عندنا العشق بالفتى ومن أنتم حتى يكون لكم عند
سمحت بروحى للحسان فما لكم ومالى وماهذا التعسف والجهد

ومن خمرياته فى مطلع مؤيدية قوله :

عوض بكأسك ما أتلفت من نشب
فالكأس من فضة والراح من ذهب
واخطب إلى الشرب أم الدهر إن نسبت
أخت المسرة واللهو ابنة العنب
غراء حالية الأعطاف تخطر فى ثوب من النور أو عقد من الحبب
عذراء تنجز ميعاد السرور فما تومى إليك بكف غير مختضب
مصونة تجعل الأستار ظاهرة وجنة تتلقى العين باللهب
لو لم يكن من لقاها غير راحتنا من حرفة التمييز بين العقل والأدب
فهات واشرب إلى أن لا يبين لنا أنحن فى صعد نرقى أم صبب

وإذا كان أثر حماة فى شعر ابن نباتة واضحا ، فهو فى إحدى قصائده أشد وضوحا وأبين أثرا . وأعنى بها قصيدة « مصائد الشوارد » . وهى أرجوزة مزدوجة فى نحو مائة وسبعين بيتا ، خرج ابن نباتة مع الملك الأفضل صاحب حماة فى رياضة للصيد والقنص فى وديانها . فألهمته رحلاته تلك قصيدته المذكورة . بدأ فيها بوصف الرياض ووشيها ، ومافيها من نور باسم وزهر ضاحك وعشب يانع ، ونواعير حادية ومياه جارية . ثم وصف البروز إلى الصيد ، والتضييق على الوحش فى مساربه . والعدة وما بأيديهم من البندق والأقواس اللدنة . ومواقع الأطيار ومراتعها . والأفق وقت المغيب ، وسهود الليل ، ويقظة الفتية تلمسا للفريسة . بينما يحلك الليل ويرزم الغيم . وهو بين هذا وذاك يصف جياد الصيد وكلابه وبزاته وصقوره وما إلى ذلك .

والقصيدة فريدة فى بابها ، بارعة فى تصورها ، وقد نعود إلى عرضها فى مقال جديد . ونذكر هنا منها أبياتا على سبيل المثال ، قال فى المطلع يصف الرياض والنواعير :

أثنى شذا الروض على فضل السحب
واشتملت بالوشى أرداف الكثب
ما بين نور مسفر الابتسام وزهر يضحك فى الأكمام
إن كانت الأرض لها ذخائر فهى لعمرى هذه الأزاهر
قد بسطتها راحة النسائم بسط الدنانير على الدراهم
أحسن بوجه الزمن الوسيم تعرف فيه نضرة النعيم
وحبذا وادى حماة الرحب حيث زها العيش به والعشب
أرض السناء والهناء والمرح والأمن واليمن ورايات الفرح
ذات النواعير سقاة الترب وأمهات عطفه والأب
تملت نوح الحمام الهتف أيام كانت ذات فرع أهيف
فكلها من الحنين قلب لا سيما والماء فيها صب

ويستطيع طلاب الموازنات ، ومحبو المقارنات ، أن يجدوا مجالا واسعا للموازنة بين قصيدة ابن نباتة هذه ، وقصيدة أخرى لمعاصره صفى الدين الحلى . فقد كان صفى الدين أحد الأدباء الذين هرعوا إلى حماة ، فى عهد ملكها المؤيد . فنال من جداه ، ونعم بهداياه ، ومدحه بقصائد غر محكمة . وقد شهد صفى الدين وفاة المؤيد عام ٧٣٢ هـ ، ورثاه . ثم هنأ ابنه الأفضل بملكه الجديد ، ثم مدحه بقصائد أخرى نفيسة . من بينها موشحة نظمها عام ٧٤٠ هـ وصف فيها رماية البندق والصيد والقنص فى مرج من مروج حماة ، وفيها يهنىء الأفضل بعيد الفطر . وفى مطالع هذه الموشحة يقول :

قم بى فقد ساعدنا صرف القدر وجاء طيب عيشنا على قدر
فكم علا قدر امرىء وما قدر فارشف بنا در الهنا إن تلق در
فالشهم من حاز السرور إن قدر
وقد صفا الزمان والأمان وأسعد المكان والإمكان
وأنجد الإخوان والأعوان وقد وفت بعدها الأزمان
والدهر تاب من خطاه واعتذر

ومنها يصف الأطيار :

أما ترى الأطيار فى تشرين مقبلة بادية الحنين
نريقها ناب عن الأنين إذا رنت نحو المياه الجون
يأمرها الشوق وينهاها الحذر

هذه أبيات من قصيدة صفى الدين التى تود لو تتناولها — أو يتناولها أحد الأدباء — فيوازن بينها وبين « مصائد الشوارد » لابن نباتة . فالشاعران متعاصران . والقصيدتان صيغتا فى مدح ملك واحد هو الأفضل صاحب حماة . والمناسبة التى قيلت فيها إحداها ، شبيهة بمناسبة الأخرى . فقد قيلتا فى وصف رمى البندق